أثر الفكر الجزائري القديم في الفلسفة المسيحية الأوروبية: "أريليوس أوغسطينوس" أنموذجا

مقـدم مخـــتارية
جامـعة معســكر
Mokhtaria.mokaddem@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2020/02/04؛ تاريخ القبول: 2020/03/28

The influence of the old Algerian thought in European Christian philosophy: "Aurelius Augustinus" model

Mokaddem Mokhtaria

Abstractc:

The journey of St. Augustine in his quest for happiness was the cause of the philosophy of African character and the Christian influence, which is still reflected in the folds of European thought religiously, philosophically or even literary. So he moved in his search for the truth from the senses to the mind and from it to the conscience.

Key words: Mind, wisdom, truth, knowledge, "kojito"

الملخص:

كانت رحلة القديس "اوغسطينوس" في بحثه عن السعادة سببا في وجود الفلسفة "الاوغسطينية" ذات الطابع الإفريقي والأثر المسيحي مما تزال مبثوثة في ثنايا الفكر الأوربي دينيا وفلسفيا أو حتى أدبيا. فانتقل في بحثه عن الحقيقة من الحواس إلى العقل ومنه إلى الوجدان.

الكلمات المفتاحية: العقل، الحكمة، الحقيقة، المعرفة، "الكوجيتو"

مقدمة:

عرف شمال إفريقيا (الجزائر تحديدا) ثلة من خيرة المفكرين والفلاسفة الذين قضوا جهدهم في التأمل العقلي وسخروا قرائحهم لخدمة المعرفة الإنسانية والفلسفة، عقلية كانت أو دينية، منطلقين من قناعات رسختها تربيتهم الإفريقية وميولاتهم العلمية، هذه الأخيرة التي تجسدت في أوضح مثال هو القديس "اريليوس اوغسطينوس[1] الذي طلب الحقيقة في المسيحية بنظرة عقلية دينية، فأضحى من ابرز ممثلي الفلسفة المسيحية في العصر الكنسي، فترة آباء الكنيسة، الرابع والخامس ميلادي. والفلسفة "الاوغسطية" ذات نزعة دينية قائمة بذاتها اتخذت من العقل شعارها ومن الرياضيات مثالها في الوضوح الذي تنشده بحثا عن الحقائق التي لا تزال آثارها متجلية في الفلسفة الأوربية إلى يومنا هذا. وتربعت على عرش الكنيسة الكاثوليكية بطابعها.

إن ثراء وخصوبة الفكر "الاوغسطيني" ليحول بيننا وبين أن نُلِمَ به في ثنايا هذه الصفحات، مما دعانا إلى تعقب اثر القديس "اوغسطينوس" في ثلاث إشكاليات رئيسية، هي: ما دور العقل وقيمته في الفكر "الاوغسطيني"؟ ما هي مصادر المعرفة؟ وأخيرا نلقي نظرة فاحصة على "الكوجيتو" "الاوغسطيني؛ متسائلين فيما يكمن أثر "الكوجيتو الاوغسطيني" على "الكوجيتو الديكارتي"؟

حري بي أن اذكر ملاحظة استرعت انتباهي في خضم القراءة للقديس "اوغسطينوس" أو القراءة عنه أثرا وتأثيرا في المعاصرين له واللاحقين عليه؛ إن جل المسائل والتحليلات التي عرض لها القديس كانت اقرب إلى الدين منها إلى الفلسفة من وجهة نظري الفلسفية، أما وجهة النظر، إن جاز لنا القول، الدينية؛ فهو في ذلك لم يحد عن جادة الصواب إذ على المرء أن يلتزم دينه ويخدمه بما تيسر له من قوى عقلية معرفية أو وجودية قيمية. فكان صادقا في صياغة قضايا المسيحية في قوالب فلسفية عقلية لحماية دينه والذود عنه ضد خصومه. لربما هو الصدق والصدق لا غير، ما جعل فلسفته ذات تأثير بالغ الأثر في رجال الدين المسيحي أو العقول المتفلسفة بل

تشترك أثرها في أصحاب النزعة العقلية من أمثال أبو الفلسفة الحديثة "رونيه ديكارت" وغيره كثير.

يُعد القديس "اوغسطينوس" فيلسوفا من فلاسفة عصر الآباء "والثقافات التي يمثلها متباينة متغايرة، فهناك أولا ثقافة مسيحية ظاهرة في النصوص الدينية ثم ثقافة يونانية، وكانت هناك، ثالثا، ثقافة سورية، وهي الثقافة المانوية التي آمن بها القديس "أوغسطين" فترة طويلة من الزمان؛ وهناك رابعا وأخيرا الثقافة اللاتينية التي ظهرت لديه مزاجا فرديا ونظرة سياسية. وقد حاول الجمع بين هذه الثقافات كلها في نفسه"**(بدوي.ع، 1979: 15)**. يربط الأستاذ عبد الرحمان بدوي ثقافة القديس اوغسطينوس بأربعة مصادر تمثلت في المسيحية : يونانية، وفارسية سورية وأخيرا بالنسبة له ثقافة لاتينية؛ متناسيا أو لربما مسقطا عن عمد ثقافته الإفريقية. والمعنى ذاته، حجب الثقافة الإفريقية، تقف عليه موسوعة عبد المنعم الحفني إذ يقول: "وكانت ثقافة أوغسطين لاتينية"**(الحفني.ع، 1999: 225)** .وعدم التحقق وغياب التدقيق واضح في حصر ثقافة القديس في اللاتينية دون غيرها من الثقافات . أما يوسف كرم فيذكر عن أسلوب "اوغسطينوس" انه "من امتن أساليب الأدب اللاتيني، ولكن تنقصه الدقة في بعض المواضيع الفلسفية وتغلب عليها ثقافته الأولى اللغوية والبيانية، فيكرر المعنى الواحد في صيغ عدة ويطنب في التمثيل والتصوير"**(كرم. ي، 2012: 28)**.

وإذا أردنا أن نفصل في الدلالات فان الأسلوب يرتبط باللغة اللاتينية والثقافة ترتد إلى البيئة الإفريقية ،وتحديدا الأمازيغة، "أسقف هيبون (Hippone؛ عنابة حاليا) في شمال إفريقيا"**(السواح.ف، 2010: 282)** الأمازيغي المداوروشي؛ نسبة إلى مدينة مداوروش بسوق أهراس، **(بن ميس.ع، 2010: 189)**. واستشهادنا بالمتخصصين في تاريخ الجزائر القديم إنما هو للفصل في أصالة الثقافة الإفريقية في شخص القديس "اوغسطينوس"، فالتاريخ إذن هو الفصل في هذه المسالة إذ كان خير مثال يعبر على الأثر الأدبي والفكري والديني للجزائر القديمة تمثل في فلسفة "اوغسطينوس"، فانه

لذلك حتما يؤرخ بشخصه للعصر السادس من العصور الأدبية لفكر شمال إفريقيا القديم: "عصر القديس "اوغسطينوس" الذي عرف بنشاط الكتابة في الدين وفلسفة الدين في نهاية القرن الرابع الميلادي وبداية الخامس الميلادي. وقد اشتهر خلاله بعض الكتاب من رجال "الدوناتية" وبعض المؤرخين أمثال "أروريليوس فيكتور"**(مقدم.ب، 2018: 327)**. فالقديس من أبناء الجزائر القديمة الذين نبغوا "في الأدب والعلوم وكل ما يتعلق بمظاهر الفكر العقلاني(...) وما كتاباتهم بلغات العالم القديم والمعروفة آنذاك وقدرتهم على السفر وتتبع خطوات العلم حيثما وجد لنيل البراعة العلمية والفكرية والمعرفة البلاغية والشهرة الخطابية إلا دليلا على قوتهم وعظمتهم وقدرتهم على التأثير في غيرهم"**(مقدم. ب، 2018: 327)**.

إن تضافر هذه العوامل بنى شخصية القديس اوغسطينوس القوية ذات الأثر العظيم في الفلسفة المسيحية، فلم يكن لأي سلطة معرفية أن تضاهي سلطته أو تعادلها سوى سلطة "أرسطو" إذ أنها "بلغت من قوة التأثير درجة بحيث انه ما من عقيدة وسيطية لم تستند عليها أو تسند إليها. كان تأثيرها في الجميع بعيدا.وكانت ينبوعا لتيارات متنوعة"**(زيعور.ع، 1983: 99)**، لأنها خاضت في كتابات جميع الموضوعات الأدبية والدينية والفلسفية "بأسلوب ميزته قوة الشعور وجمال العبارة وجدتها، وكانت عباراته القوية العاطفية التي لا يلجا بها إلى العقل بل إلى الشعور إيذانا بانتهاء الأدب القديم وانتصار أدب العصور الوسطى"**(بعلي.ح، 1999: 193)**. كما أن اتساع المواضيع الأدبية في العصور الوسطى شمل أيضا الكتابات الدينية والسيرة الذاتية التي كانت بداياتها تاريخيا وإنسانيا مع كتاب "الاعترافات" للقديس اوغسطينوس. أما أول رواية في تاريخ الأدب الإنساني فكانت الحمار الذهبي "للكيوس ابوليوس" احد ابرز مفكري الجزائر القديمة قبل القديس اوغسطينوس، ونذكر في هذا المقال مقالا للأستاذ "علي زيعور" يستشهد فيه برأي احد مؤرخي الغرب لشمال إفريقيا يقول فيه: "قدمت شمال إفريقيا للكنيسة مفكرين جيدين غير القديس اوغسطين أيضا؛ فهي التي طيلة قرابة الثلاثة قرون أعطت للأدب المسيحي معظم الكتاب الذين زينوه إذ

بقيت إفريقيا الشمالية حتى القرن الرابع بؤرة الفكر المسيحي الغربي"**(زيعور.علي، 1983: 100)**.

إن إبداع القديس اوغسطينوس لم يقتصر على المسيحية والفلسفة بل تعداه إلى حد التجديد في نظم الأناشيد ودليل ذلك ما ذهب إليه الكاتب الفرنسي "بول مونصو": "إننا لا نعرف عند القدماء مثالا يشبه هذا النظم وبلا شك فان معظم عناصر النظم موجودة في مواطن أخرى، فالتقطيع والترجيع موجودة عند الكلاسيكيين، والترتيب الأبجدي موجود في الإنجيل غير أن الجديد في هذه الأناشيد هو الجمع بين هذه العناصر والتوفيق بينها (...) وهذا النظم في نظرنا هو من عبقرية اوغسطينوس، لأنه يظهر لأول مرة في نشيد هذا القديس القرطاجني الإفريقي، ولا يوجد في القديم إلا عنه. وبهذا فهو يعد أهم مرحلة في التطور الإيقاعي الذي أدى إلى نظمنا المعاصر"**(بعلي.ح، 1999: 195)**. انه لأمر واقع، حيثما تولي نظرك عقليا كان أو دينيا- أدبيا أو فنيا فإنك تتعرف على عقل مبدع وخلاق صُهرت كل معارف عصره في شخصه الذي عنى بالمعرفة الإنسانية إبداعا وتدوينا فشهد له التاريخ بذلك.

على هذا النحو، تبين لنا نوعا ما بالغ الأثر الذي تركه الفكر الاوغسطيني "على المثقفين والمفكرين في العصور الوسطى وعلى البروتستنتية الدينية والمذهب الكنسي الجانسي. كما كان لها تأثير فعال على التيارات الحديثة والمعاصرة التي تدعو إلى الحرية والطبيعة الإنسانية"**(حمداوي.ج، 2013: 265)**. لا يتردد القديس اوغسطينوس في ذكر الهدف المنشود في أي مسألة يبحثها أنه ينشد الحكمة بل أن وجوده إنما قرنه بالحكمة في محاورته لذاته من خلال حوار دار بينه وبين عقله "العقل: وهكذا فإنك متمسك بالحياة الحاضرة، لا عن رغبة فيها بل سعيا إلى الحكمة. أوغسطين: لاشك فيما تقول"**(اوغسطين.ا، 2005: 33)**.

إذن، نسعى جاهدين في معرفة الحكمة في مسائل وقع اختيارنا عليها من مجموع لا يعد ولا يحصى من الإشكالات والقضايا المعرفية

المبثوثة في ثنايا المنظومة الفكرية والمعرفية للعبقرية الاوغسطينية، وأولى المسائل هي:

1.إشكالية التوفيق بين العقل والنقل:

في الوقت الذي نلفي فيه جهد القديس اوغسطينوس منصبا على التوفيق بين النقل والعقل، بين المسيحية والفلسفة اليونانية نلفي أيضا من رفض، رفضا قاطعا، التوفيق بين هذين القطبين للتعارض القائم بينهما، مثل موقف "أرنوبيوس"[2]. يتلخص موقف القديس اوغسطينوس في إشكالية الصلة بين العقل والنقل في ثلاث صيغ، هي: أولا: أسبقية العقل على النقل من حيث الدور المنوط بالعقل في كشف الحقائق الإيمانية من ناحية ووجوب الاعتقاد بها أو عدم وجوبه. أما أسبقية الإيمان على العقل، لأن الإيمان يتقدم إجرائيا على العقل لكي يتعقله. أما الحالة الثالثة فتتمثل في وجوب توجه الإيمان نحو العقل، فلا يكون إيمانا ساذجا، بل إيمانا متعقلا**(بدوي.ع، 1979: 21)**. فالعقل عنده ينشد الإيمان، والإيمان يسبق العقل لأنه الحق، والحق مقصد العقل ليتعقله. وفي السياق ذاته يرى الأستاذ يوسف كرم أن: "هذان النوعان من التعقل يؤلفان "الفلسفة المسيحية" التي تنظر في الوجود على ما أوحى به الإله؛ فاوغسطين، مع علمه بأن العقل والإيمان متمايزان بالذات لم يضع مبدأ يكفل استقصاء هذا التمايز ولكنه جمع بينهما في حكمة كلية تظهرنا على حقيقة الوجود..."**(كرم.ي، 2012: 144)**، محاولا من إيمانه الراسخ بالعقيدة المسيحية أن يوضح طبيعة الدور الذي يلعبه العقل في حياة كل مؤمن يتأمل عقيدته تأملا فلسفيا، وذلك من خلال إيمانه الباحث عن التعقل، "وهو الشعار الذي رفعه القديس "أنسلم"[3] لأول مرة في أواخر القرن الحادي عشر، واتخذه أيضا عنوانا لكتاب استقر في نهاية المطاف على تسمية proslogion [4] وهو الكتاب الذي تناول فيه أول صورة من صور برهانه الانطولوجي على وجود الله"**(جاريث.م، 2013: 144)**. لو تأملنا قليلا في العلاقة الودية، إن جاز لنا التعبير، بين العقل والنقل هذه العلاقة الجدلية في أصلها، والتي رسمها لنا القديس أوغسطين على أنها علاقة تكاملية بين الدين المسيحي والفلسفة يتبادل

فيها الطرفان الأسبقية الواحد على الآخر من حين لحين دون عداء أو نبذ من المسيحية اتجاه الحكمة الفلسفية لا العكس لتحيلنا إلى طرح السؤال: كيف يمكن للعقل الذي يسبق الإيمان أن يعادي العلم في العصر الوسيط؟ أم أنها مجرد صورة شكلية بين الطرفين فرض على العقل فيها ألا يكون أكثر من خادم للدين المسيحي؟ لأن محاكم التفتيش تجيب على السؤال. مسالة أخرى ذات جانب كبير من الأهمية، كيف يمكن أن يلتقي كل من القديس اوغسطينوس ورونيه ديكارت على نحو يتأثر فيه الثاني بالأول؟

غني عن البيان أن أبو الفلسفة الحديثة "ديكارت" ممثل النزعة العقلانية في العصر الحديث وان القديس "اوغسطينوس" من أعظم آباء الكنيسة وأشهرهم إذ خدم الدين بالعقل وسخره له. إن أسئلة من هذا القبيل تدعونا إلى إعادة النظر في قراءة فلسفة القديس اوغسطينوس. وهناك من يرى أن "اغسطينوس وان كان قد ميز من حيث المبدأ بين العقل والنص إلا انه من حيث العمل والسلوك والاعتقاد الفعلي لم يضع هذا التمايز بينهما بل جمع بينهما في المسيحية يتحد العقل مع القلب والنظر مع المعاينة"**(زيعور.ع، 1983: 40)**. والمعنى ذاته يتفق مع نص للقديس اوغسطينوس في اعترافاته حيث يشير من خلاله إلى أن النظر العقلي في مخلوقات الله دليل على وجوده؛ وهو يقول: " (...) ولم يكن لي بتاتا مجال للشك، وكنت اقرب إلى الشك في حياتي من أن اشك في عدم وجود الحق الذي يرى بواسطة المخلوقات معقولا. وتمعنت في جميع الأشياء التي هي تحتك، ورأيت أنها إما أن توجد إطلاقا، أو لا توجد إطلاقا: هي توجد لأنها صادرة عنك (...)"**(اوغسطينوس.ا، 2012: 209)**. فلولا العالم الخارجي (الحسي) لما تيسر لنا معرفة الحق ومعرفة الحقائق الأبدية التي تنكشف لنا من خلال العالم المادي.

أما في كتابه "محاورة الذات" فيلحق بالإيمان الذي يجعله يعتقد أن ما يجب أن يتوجه بنظرة إليه يضمن له السعادة؛ أما النظر يوصل إلى رؤية الله، أي الغاية. وهذا لا يعني أن النظر لن يعود له وجود بل لن تعود له غاية يندفع إليها، وفي ذلك عينه كمال حقيقي للفضيلة وهو

أن العقل يبلغ هدفه الذي هو الحياة السعيدة"**(اوغسطينوس.ا، 2005: 23)**. فكون الرؤية بالنسبة للقديس اوغسطينوس، مجرد فكرة في النفس تجد كمالها في التعاون بين الذات المفكرة والفكرة ذاتها ومنتهى غاية العقل تكمن في معرفة الحق تعالى وبمعرفته للحق يصل الإنسان إلى مرحلة السعادة وهي الفضيلة القائمة في الكمال الحقيقي. والعقل هو الطريق للعروج إلى الفضيلة الاوغسطينية. وفي ذات السياق يؤمن القديس أن مسألة معرفة الله من المسائل البينة الواضحة بذاتها وهي "موضوع معرفة ضرورية كلية؛ ولهذا يقرر أنه لا يمكن لإنسان أن ينكر وجود الله. وفي الوقت نفسه يقرر أننا وإن كنا نقر بوجوده فإننا لا نستطيع أن ندرك ماهيته"**(بدوي.ع، 1948: 250)**. ويلمع موقفه من مسألة الإيمان بوجود الله إلى تجربته الشخصية التي أفضت به إلى الإيمان دون براهين عقلية؛ إذا كانت خطوته الأولى إلى الإيمان بالله دون عقل فإننا نستوضح أمرا في أسبقية الإيمان على العقل عنده وهو أن تجربته الروحية بدأت أولا وانتهت بتسخير العقل ثنائيا، وهو يقول بهذا الخصوص: "ومن ذاك تنبهت إلى أن ارجع إلى نفسي ذاتها وكنت دليلي فدخلت إلى باطني بالذات، استطعت ذلك، لأنك أصبحت سندي. دخلته ورأيت بقلبي رغم الغشاوة التي عليه (...) نورا مستقرا (...) بل كان أعلى مني وارفع لأنه خلقني وأنا دونه لأني خلقت من صنعه. إن من يعرف الحق، يعرف الحق، ومن يعرفه يعرف الأبدية، وتعرفها المحبة"**(اوغسطينوس.أ، 2012: 207)**.

2. نظرية المعرفة:

اهتم القديس اوغسطينوس بالمعرفة اهتماما كبيرا حيث رأى، من خلالها، أن البحث عن المعرفة يجب أن يبدأ بالبحث في ذواتنا أولا، فالذات هي منطلق البحث عن الحقيقة "وعن طريق اكتشاف الذات يصل إلى الحقيقة أو على الأقل يصل إلى المنهج الذي يثبت به إمكان هذه الحقيقة"**(بدوي.ع، 1979: 22)**. إن النظرة الاوغسطينية الداعية إلى العود والغوص في الذات ذاته لإدراك المعارف والبحث عن الحقائق وأن الذات هي الثمينة بتمركز الفكر والنظر فيها. بهذه النظرة نستحضر الحكمة المكتوبة على معبد دلفي "اعرف نفسك بنفسك"

وشعار سقراط أيضا في البحث عن الحقيقة. ويذكر عبد الرحمان بدوي أن هذه الفكرة الاوغسطينية هي "نقطة البدء في تفكير "ديكارت" والتي اعتبر على أساسها مؤسس الفلسفة الحديثة، فهو قد بدأ كاوغسطين بالفكر لكي يصل إلى الوجود، ومن هنا تظهر أهمية أوغسطين"**(بدوي.ع، 1979: 22)**. بذلك تكون الذات مركز الوجود المادي والروحي للفرد وتمركزها حول ذاتها وقوتها كامنة فيها لا في غيرها لا في الوجود بأسره؛ إنما هي انطلاقة جبارة بحد ذاتها، انطلاقة وجودية ووجدانية في آن معا.

أما سؤال: كيف تصل النفس إلى إدراك الحقائق؟ فيجيب أوغسطين أن ذلك يتم: "بالإشراق الباطن من الله على النفس"**(بدوي.ع، 1984: 250)**، ما يعني أن الحقائق تنبعث في النفوس من مصدرها الأعلى وهو الله، علما أن القديس لم ينفِ "إمكان معرفة مدركات العالم الحسي كما تبدو لنا، حتى لو لم نستطع البتة معرفة هذه الأشياء في ذاتها"**(جاريت.م، 2013: 61)**. على عكس ما يدعيه الشكاك[5] الذين ناهضهم القديس اوغسطينوس بدحض أرائهم في إنكار المعرفة حيث خصص كتابا اسماه "الرد على الأكاديميين عالج فيه مسألة اليقين بإنكار دعاوي المنكرين لإقامة المعرفة. وعدم إنكار القديس لمعطيات العالم الحسي فمرده إلى أن العالم الحسي له وجود حقيقي ومع ذلك فهو غير كاف لإدراك الحقيقة كاملة. أما المعرفة المؤدية إلى العلم فهي معرفة الحقائق الأزلية الأبدية، وهذه الحقائق الأزلية الأبدية موجودة بطبيعتها في النفس الإنسانية، ويستطيع الإنسان أن يصل إليها عن الطريق عينها التي تؤدي إلى إثبات الحقيقة والذات**(بدوي.ع، 1979: 24)**؛ فالحقيقة ضرورية وثابتة لا تتغير، لكن لاشيء ضروري أو ثابت لا يتغير في النظام الحسي. وقد انتشرت هذه الفكرة عند جميع المدارس الاوغسطينية في القرن الثالث عشر. كما أن القديس "بونافنتير" و "متى أكزبرطة"، و"روجر مارستون" وآخرون غيرهم قالوا بها وعلموها لتلاميذهم**(اتين.ج، 1996: 295)**.

نخلص إذن إلى أن إمكان قيام المعرفة في نظر القديس اوغسطينوس إنما يحصل في النفس عن طريق الإشراق الباطن من الله مفترضا أن "إدراك النفس شبيه بادراك العين للأجسام: فكما أنه لكي تبصر العين الأجسام لابد من النور كذلك النفس في إدراكها للحقائق لابد لها من إشراق نور عليها، وكما أن الشمس هي مصدر النور المادي الذي يجعل الأجسام مرئية، فإن الله هو مصدر النور الذي يجعل الحقائق العقلية مبصرة للعقل"**(بدوي.ع، 1984: 250)**، فالله مصدر المعرفة ومبدأها لأن الحواس متغيرة فان المعارف الحاصلة بها ليست متغيرة فحسب بل متناقضة، لذلك أسند المعرفة الصحيحة والحقيقة الثابتة إلى ما ليس بمتغير، وما ليس بمادة . ذكرنا آنفا أن اوغسطينوس لم ينكر العالم الحسي بل اعتبره دليلا على وجود الله من حيث أن الله خالق العالم عنده، فالنتيجة الحاصلة في المعرفة الاوغسطينية أنها حاصل علاقة ثلاثية بين كل من العقل والحواس والله، دون توضيح منه لنصيب كل طرف في هذه العلاقة.

3. "الكوجيتو الاوغسطيني" (si Je Me Trompe, Je Suis):
إن ما حصل في نفس القديس أوغسطين من قلق معرفي انتابه بسببه رفض "الشكاك" لإمكانية قيام المعرفة؛ حذا به إلى صياغة دليل واضح في البرهنة على إمكان المعرفة وهو ما يشير إليه كل إنسان فرد بقوله: "أنا موجود**(جاريت.م، 2013: 61)**. أي بالعودة إلى الذات، كما ذكرنا في إشكالية المعرفة عنده.

يرى اوغسطينوس أن النقطة المشتركة بين الناس جميعا هي الشك، "فالشك هو الحقيقة الثابتة لدى الناس جميعا، ومعلوم أن الشك يرتبط بالفرد والذي ينبغي أن يكون حيا وما يرتبط بذلك من تذكر وإرادة ونسيان ومعرفة **(زيعور.ع، 1983: 42)**؛ فمن يشك يدرك ويعلم بأنه يشك، وفي إدراك الذات شكها بأنها تشك، فإنها تعرف معرفة تنافي الشك المطلق.

يستطرد القديس اوغسطينوس في إثبات معرفة الذات ليس للمعرفة فقط، لان المعرفة عنده يثبت إمكانها بإثبات وجود الذات التي تدرك وتبرهن على وجودها بالخطأ الذي تقع فيه، وهو يقول في هذا

الصدد: "ما لا وجود له البتة لا يقال عنه انه خطأ [6] ، إن كان خطأ فهو موجود. وأما إن لم يكن موجودا فلا يمكن أن يكون خطا" **(اوغسطينوس.أ،2005، 81)**. وفي هذه الصياغة الاوغسطينية للبرهنة على وجود الذات وانتقاله إلى الوجود، يتلخص "الكوجيتو الاوغسطي" القائل: "إذا أخطأت، فأنا موجود". والخطأ مرتبط بمعرفة خاطئة غير صحيحة صادر عن التفكير؛ فنقطة البداية إذن واحدة بين القديس "اوغسطينوس" و"رونيه ديكارت". ويذكر "جاريت ماتيوز" في كتابه المعنون ب: "اوغسطينوس" أن الباحثين اهتموا بهذه المسالة، منذ ديكارت إلى يومنا هذا، ووقفوا على "جملة الأفكار التي تأثر بها "ديكارت" بمذهب القديس اوغسطينوس، وعنوا ببيان كيف استطاع مذهب "اوغسطينوس"، والى أي مدى يمكن أن يؤثر في فلسفة "ديكارت" بوجه عام. والحق انه لم يبق اليوم محل للشك في هذا التأثر"**(جاريت.م، 2013: 63)** إذ كان القرن السابع عشر (17 م)، خاصة في فرنسا، اوغسطينيًا بامتياز ليس فقط لبعث مشكلة القدر من جديد ، بل للأهمية التي اضطلع بها الفكر الاوغسطيني في تطور الفلسفة الديكارتية، ومن وجهة نظر المعاصرين؛ بدا التقاء الديكارتية والاوغسطينية رائعا، رغم الاختلافات الجوهرية بين الفلسفتين(**dictionnaire de la philosophie, 2016 :p 2015)**. فما أصل فكرة اللامتناهي عند "ديكارت"؟ المشكلة لم تشغل بال "أفلاطون" أو "أرسطو". فالنفس أو صورة الله أو النور الإلهي هي مصدر فكرتنا عن اللامتناهي عند "ديكارت"، وبذلك يقوم "الكوجيتو الديكارتي" على أسس مسيحية**(اتين.ج، 1996: 269)**.

يسجل التاريخ للقديس أوغسطينوس إلى جانب إبداعاته المعرفية والفلسفية والدينية؛ مقاومته للوندال الغزاة، إذ امتازت مقاومته بميزتين: مقاومة ذات طبيعة دينية ومقاومة ذات طبيعة ثقافية. حيث دافع عن الجزائر بصفة عامة وعنابة بصفة خاصة من اجل الاستقلال**(حمداوي.ج، 2013: 265)**.

فمن تجلياته الثقافية انه "المؤسس الحقيقي للاوطيبوغرافيا (فن السيرة الذاتية)، ومجدد الفكر المسيحي الكاثوليكي، وصاحب نظريات فلسفية ولاهوتية، تركت تأثيرها في الكثير من المفكرين والفلاسفة وعلماء اللاهوت قديما وحديثا من "بول اورزو" إلى "بول ريكور"، مرورا بباسكال و"كالفان، و" لوثر"، و"توماس الاكويني"، و"حنا اريندت "، و"أدولف هارناك"، "أنسلم دوكانتور بيري"**(حمداوي.ج، 2013: 265)**.

خاتمة:

إذا كانت بدايات "القديس اوغسطينوس" قد اتسمت بروح الشك في محطاتها المعرفية الأولى فان مبتغاها إنما كان الحقيقة واليقين، مشيرين أن أوغسطين لم يكن التفكير العقلي غايته بل كان وسيلته، مع ذلك طالب بالتعقل وهي رسالة إلى الفلاسفة تظهر أن الديانة المسيحية لا تتعارض مع العقل، لا دعوة إلى تحرير العقل من قيود رجال الدين ورهبان مدينته الإلهية.

التعليقات:

(1): "أوريليوس اوغسطينوس (354- 430 م)؛ ولد بطاغشت (Thagaste) من أعمال نوميديا (سوق أهراس حاليا). درس بمسقط رأسه ابتداء من 361م وانتقل إلى مداوروش (Madauros) لإكمال دراسته، ثم رحل إلى قرطاج سنة 37 م. وأصبح أستاذا سنة 376 م. ارتحل إلى روما سنة 383 م. ثم أصبح أسقفا لعنابة سنة 396 م. هاجم الدوناتية والبلاجية دفاعا عن المسيحية الرسمية. له الكثير من المؤلفات منها: ضد الأكاديميين، الحياة السعيدة، والمناجاة وحرية الإرادة، الاعترافات، مدينة الإله، الثالوث وغيرها كثير. انظر: مقدم بنت النبي، الحياة الفكرية والأدبية في الجزائر القديمة، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، العدد 08، 2018، منشورات جامعة وهران 2، ص 343.

(2): أرنوبيوس (Arnobius of Sicca) وُلد سنة 240م ؛ كاتب أمازيغي من شمال إفريقيا واحد المدافعين عن الإيمان المسيحي ضد الوثنية.(https://fr. m. wikipidia. org/wik).

(3): أنسلم (Saint- Anselme)؛ كاثوليكي من شمال ايطاليا ولد في 1033 وتوفي سنة 1109 م.

(4): Proslogion؛ كلمة إغريقية معناها "الحوار" (Intervieu). عالج الكتاب مسالة وجود الله من خلال عرضه للحجة الوجودية .(https://fr.m.wikipedia.org/wik).

(5): الشكاك: من أتباع الأكاديمية الجديدة وهي مدرسة فلسفية يونانية تأسست على يد "ارقسيلاس" (315- 240 ق.م).

(6): خطأ: معناه عند القديس "ما قدَّ ذاته على غير ما هو أو بشكل عام ما يدَّعي أن "يكون" دون أن "يكون" حقًا. انظر: القديس أوغسطين، محاورات الذات، مرجع سبق ذكره، ص 34.

***المراجع:**

(1): عبد الرحمان بدوي(1979)، فلسفة العصور الوسطى، الكويت، وكالة المطبوعات، ، ط 03، ص 15.

(2): عبد المنعم الحفني(1999)، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج 01، مصر، مكتبة مدبولي، ط 02، ص 225.

(3): يوسف كرم(2012)، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، القاهرة، مؤسسة هنداوي، د(ط)، ص 28.

(4): فراح السواح(2010)، موسوعة تاريخ الأديان، الزرادشتية، المانوية، اليهودية، والمسيحية، ج 05، دمشق، دار علاء الدين، دمشق، ط 02، ، ص282.

(5): عبد السلام بن ميس(2010)، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الامازيغية القديمة (دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاتها)، الرباط، دار النشر أدجل، ط 02،ص 189.

(6): مقدم بنت النبي (2018)، الحياة الأدبية والفكرية في الجزائر القديمة، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، العدد 08، 2018، منشورات جامعة وهران 2، ص 327.

(7): علي زيعور، اوغسطينوس(1983)، مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، بيروت، دار اقرأ ، ط 01، ص 99.

(9): حفناوي يعلي(جوان 1999)، مدخل في إشكالية الأدب اللاتيني الافريكاني، دراسة مقارنة في التأثر والتأثير، التواصل مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، عدد 04، ص 193.

(10): جميل حمداوي(2013)، المقاومة الامازيغية عبر التاريخ، الدار البيضاء منشورات المعرف، د (ط)، ص 265.

(11): القديس اوغسطين(2005)، محاورة الذات، تح: يوحنا الحلو، بيروت، دار المشرف، ، ط 01، ص 33.

(12): جاريت ماثيوز، اوغسطينوس(2013)، تر: دار آفاق للنشر، القاهرة، ط 01، 2013، ص 144.

(13): القديس اوغسطينوس(2012)، الاعترافات؛ تر: إبراهيم الغربي، تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، د(ط)، ص 209.

(14): عبد الرحمان بدوي(1984)، موسوعة الفلسفة، ج 01، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ط 01 ، ص 250.

(15): اتين جلسون(1996)، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مصر، مكتبة مدبولي، ط 03، ص 295.

(16) : Dictionnaire de la philosophie, encyclopédie universalise, France, 2016, p2015.

للإحالة على هذا المقال:
ـ مختارية مقدم، (2021)، «أثر الفكر الجزائري القديم في الفلسفة المسيحية الأوروبية:(أريليوس أوغسطينوس) أنموذجا » . **المواقف،** المجلد: 17، العدد: 01، جويلية 2021، ص. ص 1183- 1197.

مختارية مقدم
wahiaiss@yahoo.fr